Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 22:3 (1987

رؤيـة اسـلامية

للنظـــام الاقتصـــادى الغـــربى

بقلم :

د. أحمد عبدالحميد غراب

مـن أهم المعالم الرئيسية للنظام الرأسمالى الغربى أنه يقوم على الملكية الخاصة، ويطلق الحرية لتضخم رؤوس الأموال، و خاصـة عن طريق الربا والاحتكار، كما يبيح للقلة الرأسمالية ، استخدام المـوارد العامة للثروات فى عمليات السوق الحرة ، التى تعمل عملها ـ فى الظاهر ـ بدون تدخل من الدولة ، وتخضع ـ فى الظاهر ـ لقوى العرض والطلب. والواقع ـ كما سنرى ـ أنّ القلة الرأسمالية تتحكم فى النشاط الاقتصادى للمجتمع كله، وذلك عن طريق مؤسساتها العديدة التـى تشمـل سلـطة الـدولة نفسها، وحـق التشريـع، والبنـوك الربـــوية، والاحتكارات العالمية، ووسائل الاعلام .

ومن المعروف أنّ هذا النظام قد أدّى بطبيعته الربوية والاحتكار الى تركيز الثروة فى أيدى القلة من الأغنياء، ومن ثمّ الى خلق هوّة واسعة بين هذه القلة من الأغنياء والكثرة من الفقراء . كما أدّى هذا النظام الى الاستعمار ، وبالتالى الى خلق هوّة أوسع بين قلة من الدول الغنية فى الغرب، وكثرة من الشعوب الفقيرة فيما يسمى بالعالم الثالث، و أولى أن يسمى بالعالم الاسلامى، لأنّ معظم سكانه مسلمون .

ومن أخطر مظاهر هذه الهوّة تلك الفروق الهائلة فى مستـوى المعيشة بين الأغنياء والفقراء بوجه عام، وبين المجتمعات الصناعية

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

والشعوب التى تسمى ,, نامية ،، بوجه خاص .

وفى جانب القلة الغنية نجد الاسراف والترف، وما يصحبهما من فسق وفواحش، وتشجيع لصناعات الترف، واقبال على ثقافة الانحلال الخلقى والاعلام الهابط، الذى يعتمد على الاثارة، وخاصة اثارة الغرائز الجنسية .

وفى جانب الكثرة نجد الفقر وما يصحبه من أمية وجهل ومرض، بل ومجاعات يموت فيها الآلاف من الفقراء جوعا .

وفى عالم بنى هيكله الاقتصادى والاجتماعى على الظلم والبغى، وعلى المادية والالحاد، كما بنى عالمنا المعاصر، لابد أن يعانى الملايين من البشر الفقر والجوع .

وذلك لعدة أسباب :

منها أنّ الفقراء الجياع لايحتاج اليهم فى النظام العالمى الحاضر كمنتجين للسلع (ومنها الطعام)، لأنّ الآلات والتكنولوجيا الحديثة تغنى عنهم ، بل ولا يحتاج اليهم كمستهلكين ، لأن الرأسماليين يبيعون سلعهم (ومنها الطعام) لمن يستطيعون دفع الثمن الذى يحددونه، وهؤلاء الفقراء الجياع لايستطيعون ، ولهذا يتضوّرون أو يموتون جوعا، لالأن الطعام غير موجود، بل لأنهم لايملكون ثمنه .

ومنها أنّ هؤلاء الفقراء الجياع ذوو أعداد كبيرة ، وهذه الاعداد الكبيرة لاتخدم أطماع القلة الرأسمالية التى تريد دائما أعلى ربح بأقل اجر وفى أقصر وقت . ومن ثمّ تستخدم أقل عدد ممكن من الأيدى العاملة، مع الاحتفاظ بجيش جرّار و دائم من العاطلين : جيش احتياطى هائل ، وظيفته الأساسية تخويف العاملين من شبح البطالة، حتى يرضوا بالأجور المنخفضة، فالأجر المنخفض على أية حال أفضل من البطالة .

ومنها أن تشغل الدول الاستعمارية (التى تسمى ,,متقدمة،،) الشعوب المستضعفة (والتى تسمى ,,نامية،،!) بمشاكل التخلف، ولاسيّما مشاكل الفقر والدّين، حتى تستغرق حياتها وحياة أفرادها فى كدح دائم من أجل لقمة العيش، فلا يكاد يجد الناس فيها وقتا أو وسيلة لمقاومة الظلم والبغى، فضلا عن تحقيق القوة والتقدم.

وهذا النوع من الظلم الاجتماعى والسياسى قد نشأ عنه اتجاه مادى واضح فى المجتمع الغربى، وفى المجتمعات الاسلامية التى تقلده وتتبنّى أنماطه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بل والثقافية ، وهو الاتجاه الى تقويم الانسان بمقاييس مادية خالصة، أى بمقدار ما يملك من المال، أو ما يقوّم بالمال .

مفهوم الثروة :

ويتضح هذا التقويم المادى للانسان فى مفاهيم غربية كثيرة، منها على سبيل المثال مفهوم الثروة ومفهوم التنمية.

ففى معجم من أشهر المعاجم فى الاقتصاد الغربى (١) تعرّف ثروة الفرد بأنها المجموع الكلى لممتلكاته المحسوسة وغير المحسوسة ، اذا كان لهذه الأخيرة قيمة مالية (أى يمكن أن تسوّق أى تباع وتشترى وتتبادل).

والممتلكات المحسوسة مثل : المنازل والبضائع والأسهم والحسابات المصرفية.

والممتلكات غير المحسوسة مثل : المهنة التى يزاولها الفرد ، وعلاقاته المهنية، ومهاراته فى مهنته أو فى غيرها (اذا كانت هذه المهارات تقوّم، أو يمكن أن تقوّم، بالمال، أو يمكن أن تسوّق : أى تباع وتشترى وتتبادل).

وهذه الممتلكات غير المحسوسة تسمّى أحيانا: الثروة البشرية، أو رأس المال البشرى.

وهناك عمليات تدريب وتأهيل تنتج رأس المال البشرى، كما تنتج آلات المصانع رأس المال المادى.

ومن الخصائص الرئيسية للثروة ـ بهذا المفهوم ـ أنها وسيلة لانتاج الدخل. ويترتب على هذا أن قيمة الثروة تتحدد برأس المال مضافا اليه القيمة المالية الراهنة (أى فى الوقت الحاضر) للدخل الذى تنتجه تلك الثروة.

وبما أن الربا يلعب دورا أساسيا فى الاقتصاد الرأسمالى الغربى فانّ رأس المال يودع غالبا فى البنوك الربوية فى حساب الودائع DEPOSIT ACCOUNT وتقدر ثروة الفرد فى هذه الحالة برأس ماله المودع مضافا اليه ما ,, ينتجه،، من الفوائد الربوية .

مفهوم التنمية:

ويتصل بهذا المفهوم المادى للثروة مفهوم مادى آخر وهو مفهوم التنمية .

يقرر الأستاذ هاريسون (P. HARRISON) ـ وهو أحد كبار الباحثين الغربيين المختصين فى شئون التنمية فى العالم الثالث (٢)ـ أنّ آراء الأغلبية من مفكرى الغرب، والأغلبية من ,,الصفوة،، المثقفة فى العالم الثالث (وهى ,,الصفوة،، التى تتشبه بالغرب ، وتقلده فى الفكر والسلوك) **تجعل مفهوم التنمية مساويا لمفهوم العصرية، وتجعل العصرية مساوية لانتصار المادية الغربية :**

"DEVELOPMENT EQUALS MODERNIZATION AND MODERNIZATION EQUALS THE TRIUMPH OF WESTERN MATERIALISM".

وهذا يعنى الانتاج بالجملة، وتضخم رؤوس الأموال فى عمليات ربوية وظهور المجتمع الاستهلاكى الذى يتميز بعادات استهلاكية تتجه عادة نحو الاسراف والترف، وتتسع فيه الهوّة بين الأغنياء والفقراء، وتستخدم فيه التكنولوجيا الحديثة لتقليل نفقات الانتاج، وتخفيض الأجور.

والاستغناء عن كثير من العاملين، وبذلك تنتشر البطالة، ويزداد عدد الفقراء الجياع.

هذا بالاضافة الى استخدام التكنولوجيا الحديثة فى صناعات الترف التى تحقق ثراءً سريعا، وفى صناعة الأسلحة التى تحقق ثراءً أسرع (ولا سيما عن طريق بيعها للمسلمين لقتل بعضهم بعضا وبهذا تستنزف دماؤهم وثرواتهم فى آن واحد).

وتستعمل التنمية بهذا المفهوم المادى فى العالم الثالث ستارا لتحقيق نوع جديد من التبعية للغرب، وتحقيق مزيد من سيطرته الاقتصادية والسياسية على الشعوب الأخرى، وذلك بفتح أسواقها للمنتجات الغربية، وفتح أبوابها لمشروعات ,,التنمية،، التى تستثمر فيها رؤوس الأموال الغربية من ناحية، وتثقل كواهل الشعوب بالديون الربوية من ناحية أخرى .

ويقرر الأستاذ هاريسون كذلك (٣) أنه فى السنوات الأولى ,,لاستقلال،، العالم الثالث ، والى نهاية العقد الأول للتنمية سنة ١٩٧٠م ـ كان هناك نموذج واحد يسود تفكير معظم الدول النامية، ووكالات التنمية، للوصول الى مجتمع التصنيع والاستهلاك : كل الدول النامية يجب أن تبذل قصارى جهودها لخلق مجتمع ناطحات السحاب، وأجهزة التليفزيون فى كل بيت، والسيارات فى كل جاراج، والمدن الكبيرة المكتظة بالسكان .

ومن الواضح أنّ الغرب مازال يبذل قصارى جهده أيضا ليظل هذا النموذج للتنمية سائدا فى العالم الثالث حتى الآن .

ومن الواضح كذلك أن التنمية بهذا النموذج العنصرى انما تعنى التغريب .

تعنى أن يفرض على كل المجتمعات أن تمرّ بنفس المراحل التى مرّبها الغرب فى تطوره من مجتمع الصيد الى مجتمع الزراعة الى

مجتمع الصناعة، وأخيرا الى مجتمع ما بعد الصناعة : مجتمع التكنولوجيا المتقدمة، والاستهلاك بالجملة، وأوقات الفراغ . ومن ثمّ فعلى اقتصاد العالم الثالث ان يمرّ بمراحل ثابتة من التطور : من المراحل البدائية والزراعية الى مرحلة الانطلاق (أوالاقلاع) الى النمو The Take off Stage وعند هذه المرحلة تنهار كل المعوّقات والعادات والقيم والأخلاق التى تمثل المقاومة الاجتماعية لهذا النوع من النمو، أى لهذا التغريب، لينفسح المجال أخيرا أمام مرحلة النمو الاقتصادى المتقدم ، وظهور مجتمع التصنيع والاستهلاك بالجملة .

وهذه المراحل قد وصفها الاقتصادى الأمريكى المشهور والت روستو فى كتابه : **مراحل النمو الاقتصادى** (٤) . وهذا الوصف يشبه الى حد كبير وصف كارل ماركس لتطور المجتمعات من بدائية الى اقطاعية الى رأسمالية، وأخيرا الى شيوعية، **مما يدل على أن كلا النظامين الرأسمالى والشيوعى ينطلق من منطلق واحد وهو المادية، ويهدف الى غاية واحدة، وهى خلق مجتمع الترف والفسق، أو مجتمع المادية والالحاد .**

ولتشجيع انتشار النموذج الغربى للتنمية أخذت الدول الغربية تقدم ,,المساعدات،، لمن يتبع هذا النموذج من دول العالم الثالث ، وأخذت معظم هذه الدول تقلد النموذج الغربى للتنمية : فتبنى ,, مصانع،، حديثة، ومنازل على الطراز الأوربى والأمريكى (للأغنياء)، وتتبنى النظم الغربية فى السياسة والاقتصاد، والتربية والتّعليم ، وأخذت تفتح أبوابها ,,للخبراء،، الغربيين فى كل المجالات .

وقضت مشروعات الانتاج والاستهلاك بالجملة على كثير من صغار التجار والحرفيين، وأهملت الأراضى الزراعية ، وزادت هجرة الأيدى العاملة من الريف الى المدن الكبيرة التى اكتظت بالسكان،

الذين انتشرت بينهم البطالة والفقر، وسكن كثير منهم الأكواخ وبيوت الصفيح، بل وسكن بعضهم المقابر .

وأدى الاقتصاد الرأسمالى الى أن تزداد قلة من الأغنياء غنى ، وكثرة من الفقراء عددا وفقرا .

ففى سنة ١٩٧٦م أجرى مكتب العمل الدولى احصائية عن عدد الفقراء خلال عشرين عاما من مشروعات التنمية فى العالم الثالث. وتبيّن من الاحصائية أنه خلال السنوات العشر من ١٩٦٣ـ ١٩٧٣ زاد عدد الفقراء حوالى ١١٩ مليون، فبلغ عددهم ١٢١٠ مليون (أكثر من بليون)، أى حوالى ثلثى سكان العالم الثالث. ومن بين هؤلاء ٧٠٠ مليون من المعدمين (تحت مستوى الفقر)، أى حوالى $\frac{2}{3}$ من سكان العالم الثالث .

وهذه ليست حصيلة مشرفة لعقدين كاملين من عقود التنمية.

وكذلك زادت الديون الربوية على العالم الثالث .

ففى سنة ١٩٧٠م كان مجموع ديون العالم الثالث ٧٤ بليون دولار .

وفى سنة ١٩٧٩م بلغ مجموع ديونه ٣٦٦ بليون دولار!

ومازالت هذه الديون وفوائدها الربوية تتراكم ، وتهدد اقتصاد بعض الدول بالافلاس، كما تؤدى الى تخفيض العملات والأجور، والى التضخم وارتفاع الأسعار، و خاصة اسعار الطعام، ما يهدد ملايين الفقراء بالمجاعات والأوبئة، هذا بالاضافة الى اضعاف الصناعات المحلية، وفتح الأسواق أمام الاحتكارات العالمية، لتستنزف المزيد من ثروات الشعوب المغلوبة على أمرها.

تلك هى بعض نتائج ,,التنمية،، فى البلاد ,,النامية،،(٥) .

محاولات تبرير الفقر

يحاول النظام الرأسمالى الغربى ـ على لسان مفكريه و ,,علمائه،، الاقتصاديين ـ تبرير ظاهرة الفقر، واتساع الهوّة بين الأغنياء والفقراء فى مستوى المعيشة، وذلك بعدة تبريرات من أهمها مايلى:

١) محاولة تبرير الفقر بزيادة النسل:

ومن أشهر أصحاب هذه المحاولة اقتصاديان متعاصران فى القرن التاسع عشر، وهما: دافيد ريكاردو (١٧٧٢ـ١٨٢٣م) وتوماس مالتوس (١٧٦٦ـ١٨٣٤م).

وقد اتفقا على الزعم بأنّ انخفاض مستوى الأجور، وبالتالى مستوى المعيشة بين العمال، انما نشأ من تزايد أعدادهم، أى من زيادة النسل فى الطبقات العاملة (والفقيرة بوجه عام) .

فهذا التزايد (وعدم تحديد النسل) هو السبب الرئيسى فى فقرهم، لأنّ كثرة أعدادهم أدت الى تخفيض أجورهم، ومن ثمّ الى انخفاض مستوى معيشتهم .

واذن فليس الرأسمالى هو الظالم، وليس النظام الرأسمالى هو المسئول ، بل العامل نفسه، والفقر بوجه عام، هو المسئول عن تعاسته وفقره (٦) .

ويمتد هذا التبرير الى محاولة تبرير الفقر فى العالم الثالث بزيادة السكان. ومن هنا نفهم سرّ الحملات المحمومة لتحديد النسل هناك، وبخاصة نسل المسلمين، حتى يصيروا أقلية لاوزن لها فى بلادهم، كما يحدث فى اندونسيا والهند وغيرهما .

بل انّ هذا التبرير يأخذ طابعا شريرا فى السياسة التى تقدم على استخدام الطعام كسلاح سياسى لتجويع الشعوب التى لاترضخ لسياسة

الغرب بوجه عام، ولعقاب الشعوب التى لاتمارس تحديد النسل بوجه خاص .

ولتنفيذ هذا العقاب يترك الفقراء ليموتوا جوعا (فى مجاعات تبدو فى الظاهر طبيعية، وهى فى حقيقتها مخططة، وخاصة عن طريق اثارة الحروب الأهلية والمحلية بين السكان) وذلك للحد من تكاثرهم الذى تعتبره الدول الغنية خطرا عليها . وتسمى هذه السياسة سياسة قارب النجاة (٧) (LIFE BOAT POLICY)

ويفضّل أحد مؤيدى هذه السياسة من الغربيين تسمية أخرى لها وهى : أخلاقيات قارب النجاة LIFE BOAT ETHICS ، ويلخص هذه ,,الاخلاقيات،، بقوله ,, لا بد أن نقذف ببعض ركاب السفينة إلى البحر والاّ غرقنا جميعا ،، . بينما يكشف مؤيد آخر عن دافع الانتقام والتشفّى وراء هذه السياسة فيقول : ,, اننا سنضطر الى أن نترك الناس يموتون جوعا فى المجتمعات التى فشلت فى تحديد نسلها،، (٨) .

موقف الاسلام من هذا التبرير :

إنّ الاسلام يرفض تبرير الفقر بزيادة السكان ، فقد أخبرنا الله تعالى فى العديد من آيات القرآن الكريم أن الأرض واسعة، وأنها مليئة بالثروات من كل نوع (كالثروات الطبيعية والحيوانية والزراعية والمعدنية)، وبمصادر الطاقة والقوة (كالماء والشمس والحديد)، وأنّ ذلك مسخّر لمصلحة الانسان، فرزق الله واسع، ونعمه لاتحصى (٩) . وقد قال الله تعالى :

,,وما من دابّة فى الأرض الاّ على الله رزقها،، (سورة هود ٦/١١) .

كما أخبرنا الله تعالى عن الأرض أنه ,,بارك فيها وقدّر فيها اقواتها،، (سورة فصلت ٤١: ١٠) .

ولذلك حرّم الله قتل الأولاد خشية الفقر فقال تعالى :

,,ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وأياكم،،

(سورة الاسراء ١٧ : ٣١) .

وقد اقتضت حكمة الله وهدايته الناس للأخذ بالأسباب أن يقترن الرزق بالسعى لكسبه، كما قال تعالى :

,,هو الّذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ،، (سورة الملك ٦٧:١٥) .

وكذلك اقتضت حكمته تعالى ورحمته بالناس أن جعلهم مستخلفين فى الرزق ، ومن ثمّ أمرهم بالانفاق منه على الفقراء، على أن يكون ذلك من حقوقهم ، كما قال تعالى :

,,وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه،، (سورة الحديد ٥٧:٧)

وقال تعالى :

,,والذين فى أموالهم حقّ معلوم للسّائل والمحروم،، (سورة المعارج ٧٠:٢٤-٢٥)

واذن فدعوى تبرير الفقر بزيادة السكان دعوى زائفة ، وقد أثبت العلم الحديث زيفها بالأدلة العلمية القاطعة، وأن فى الأرض ثروات تكفى أضعاف سكانها، وأن المشكلة لاتكمن فى قلة الرزق، بل فى حرمة الكسب، وسوء الانفاق، أى تكمن فى جشع الأغنياء، واستعمالهم لوسائل الكسب الحرام، ولاسيّما الربا والاحتكار والاكتناز، وأكلهم أموال الناس بالباطل، واسرافهم فى الانفاق على أنفسهم ، وبخلهم على غيرهم بما آتاهم الله من فضله. وبعبارة أخرى: ان المشكلة لاتكمن فى قلة الثروة أو نضوب مصادرها، بل تكمن فى طرق اكتسابها، وسوء انفاقها .

وتتأكد هذه الحقيقة بالاحصاءات التالية :(١٠) .

★ البلاد الغربية الغنية : سكانها $\frac{1}{4}$ سكان العالم ، ودخلها $\frac{4}{5}$ دخل العالم .

بلاد العالم الثالث الفقيرة : سكانها $\frac{٣}{٤}$ سكان العالم، ودخلها $\frac{١}{٥}$ دخل العالم.

★ معظم سكان العالم $\frac{٣}{٤}$ لايجدون الكفاية من الطعام والمسكن والكساء والتعليم والعلاج . ويرتبط الفقر فى العالم الثالث بانتشار الامية والجهل والمرض. بينما أغنياء الغرب يأكلون بشراهة، ويحيون حياة الاسراف والترف.

★ فى الأعوام الأخيرة كان العالم ينتج حوالى ١٣٠٠ مليون طن من الطعام سنويا، يستهلك أغنياء العالم الغربى وحدهم نصف هذه الكمية من الطعام سنويا .

★ أما حيوانات الأغنياء فتستهلك $\frac{١}{٤}$ كمية الحبوب التى ينتجها العالم سنويا (فى شكل حبوب أو لحوم)، أى ما يساوى استهلاك كل سكان الهند والصين !

★ هناك أراضى شاسعة صالحة للزراعة ، ولكنها لاتزرع، أولا تزرع كما ينبغى ، بالرغم من وجود المال والوسائل العلمية والتكنولوجية لاستثمارها. وتبلغ مساحة الأراضى الصالحة للزراعة فى العالم ٢٥٠٠ مليون هكتار، يزرع منها ١٤٣٠ مليون هكتار فقط . ومعظم الأراضى الصالحة للزراعة $\frac{٩}{١٠}$ تقع فى العالم الثالث .

★ فى أمريكا اللاتينية ٧٪ من الأغنياء يملكون ٩٠٪ من الأراضى الزراعية، وفى آسيا يملك الأغنياء $\frac{٣}{٥}$ من الأرض، وفى أفريقيا يملك $\frac{٣}{٤}$ السكان أقل من ٤ ٪ من الأرض.

★ تشجع كثير من الدول الغربية مزارعيها على عدم زراعة بعض أراضيهم، وتقدم لهم التعويض المالى عن

ذلک ، للحفاظ على ارتفاع أسعار المواد الغذائية . وعلى سبيل المثال فى سنة ١٩٧٢م دفعت الحكومة الأمريكية أموالا للمزارعين ليمتنعوا عن زراعة ٦٠ مليون فدان بالقمح،مما أدى الى ارتفاع أسعاره (١١) .

★ تقوم حكومات السوق الأوروبية المشتركة بتخزين كميات هائلة ويطلق عليها لفظ ,,جبال،،(MOUNTAINS)من الزبد واللحم والحبوب، أى تقوم باحتكار الطعام للحفاظ على ارتفاع أسعاره .

★ من المعروف أنّ بعض الدول الغربية تقوم باتلاف كميات كبيرة من المحاصيل الزراعية لتحقيق نفس الهدف.

واذن فليست كثافة السكان أو زيادة النّسل هى السبب الحقيقى فى الفقر .

بل انّ زيادة النسل فى الحقيقة ثروة بشرية تلعب دورا فعّالا فى محاربة الفقر ، اذا أحسنت تربية النسل، وأحسن استخدام طاقاته، أى اذا ربّى تربية اسلاميّة .

ومن ثمّ فالاسلام يدعو الى زيادة النسل (١٢) .

ولكنّ هذه الزيادة ليست مجرد زيادة كمية، بل هى ترقية نوعية أيضا. وذلک لأن الاسلام يوجب تربية النشئ تربية اسلامية ، تخرج منهم الأجيال التى تلتزم بالاسلام، وتطبق منهجه، وتقيم حضارته، أى تحقق الحياة الطيبة على وجه الأرض ، وهذا يقتضى الجهاد لتتم هيمنة الاسلام فى الأرض، ولتكون كلمة الله هى العليا .

وبدون هذه التربية ، وهذا الجهاد، يصبح المسلمون. كما هم اليوم. كثرة ,,كغثاء السّيل،، .

انّ الدعاة الى تحديد النسل يجهلون أو يتجاهلون أن الأولاد فى الأسر الفقيرة فى العالم الثالث ليسوا مجرد ,,عبء اقتصادى،، وليسوا مجرد أفواه تأكل، وأمعاء تستهلك، بل هم فى الحقيقة ثروة بشرية لاتقدّر بثمن بالنسبة لأسرهم ومجتمعاتهم .

فبالنسبة لأسرهم يقومون منذ سن مبكرة بأعمال كثيرة وهامة لمساعدة آبائهم فى الحقل وأمهاتهم فى البيت ، ويصبحون عونا ماليا وانسانيا لوالديهم عند المرض أو العجز عن العمل أو كبر السنّ، ولا سيّما فى مجتمعات ليس فيها ضمان اجتماعى، أو تأمين صحى، ولا تعتبر الحياة فيها بوجه عام متعة للفقراء، أو مزية للمستضعفين، لأن المتع والمزايا فى تلك المجتمعات تحتكرها القلة من الأغنياء والأقوياء، أى أولى النّعمة والسلطة ، والموالين لهم :

,,وانّ الظّالمين بعضهم أولياء بعض،، (سورة الجاثية ٤٥: ١٩)

وأما بالنسبة لمجتمعاتهم فهم يكوّنون الأيدى العاملة، والطاقات العقلية والروحية الهائلة، التى تحتاجها المجتمعات الاسلامية أشدّ الحاجة فى السلم والحرب، للتعمير والجهاد .

٢) **محالة تبرير الفقر بنظرية دارون : البقاء للأصلح :**

وهى محاولة قام بها منذ القرن التاسع عشر بعض الفلاسفة والمفكرين الاجتماعيين والاقتصاديين من أنصار النظام الرأسمالى الغربى، وبخاصة هربرت سبنسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣ م) فى بريطانيا ، ومن تأثروا به فى الولايات المتحدة الأمريكية (١٣) .

ويدافع أصحاب هذا الاتجاه عن النظام الرأسمالى الغربى ويبررونه على أساس نظرية دارون فى الاختيار الطبيعى والبقاء للأصلح SURVIVAL OF THE FITTEST، وامتداد تطبيقاتها من علم الحياة الى علوم الاجتماع والاقتصاد .

فالرأسماليون أغنياء لأنهم أكثر تفوقا من الناحية الحيوية : BIOLOGICALLY SUPERIOR (أى متفوقون عرقيا بالطبيعة والوراثة) .

والفقراء فقراء لأنهم ضعفاء متخلّفون من الناحية الحيوية (أى متخلّفون لاتصافهم بصفات عرقية متدنّية بالطبيعة والوراثة).

والثروة هى المكافأة للمتفوقين على تفوقهم . ووجود الثروة فى أيديهم (أى امتلاكهم للثروة) يدل على تفوّقهم من جهة، ويزيد هذا التفوّق ويرقّيه من جهة أخرى .

وكما أنّ الثروة مكافأة للأغنياء ، فالفقر عقوبة للفقراء .

وبالاضافة الى اعتبار الفقر عقوبة فهو ـ فى نظر أصحاب هذا الاتجاه ـ يعتبر عاملا اجتماعيا نافعا، لأنه يقضى على الفقراء تدريجيا بواسطة الجوع والمرض، وبذلك يخلّص المجتمع من عناصر الضعف والتخلّف، ويبقى على عناصر القوّة والتقدّم (وهم الأغنياء بالطبع!) .

وقد انتشر هذا الاتجاه وأصبح ذا تأثير كبير فى الولايات المتحدة الامريكية على أيدى بعض ,,المفكرين،، الاقتصاديين ، وبخاصة وليام ستمر (١٨٤٠ـ ١٩١٠م) وهنرى بيتشر (١٨١٣ـ١٨٨٧م) .

وما زال لهذا الاتجاه أنصار عديدون فى أوروبا و أمريكا حتى اليوم .

ويتمثل هذا الاتجاه فى عصرنا الحاضر فى النزعة العنصرية التى تحاول أن تبرّر الاستعمار الغربى للعالم الثالث بنظريات تلبس مسوح العلم، وهى فى حقيقتها نظريات عنصرية تهدف الى تشويه الحقيقة، لتتيح للغرب الاستمرار فى سيطرته السياسية والاقتصادية على شعوب العالم واستنزاف ثرواتها .

فيزعم أنصار هذا الاتجاه أن شعوب العالم الثالث متخلّفة بالطبيعة،ولذلك فان معظم سكان هذا العالم فقراء. وهذا يعنى أنهم يتصفون بصفات التخلّف العقلى والخلقى (كالكسل والبلادة، والغباء

والفساد، وعدم المقدرة على التنظيم والتخطيط، والفشل فى تحديد النسل)، وأن هذه الصفات عرقية طبيعية، تنتقل بينهم بالوراثة من جيل الى جيل ، ومن ثمّ فهم يستحقون ماهم فيه من فقر و جوع، وماهم عليه من جهل وتخلّف.

ويركّز أصحاب هذا الاتجاه على مهمة الرجل الأبيض بين شعوب العالم الثالث ، ليس كمستعمر لها، ومستنزف لثرواتها، بل كحامل لمشعل الحضارة الغربية لشعوب متخلّفة، هى فى أشدّ الحاجة الى ,,عبقرية،، هذا الرجل الأبيض وحضارته!.

ولا يتحدث هؤلاء العنصريون عن استعمار الرجل الأبيض لهذه الشعوب، وأنه من أهم العوامل فى تخلّفها،. ويحاولون أن يتجاهلوا هذا العامل التاريخى، بدعوى أنّ الحديث عن الإثم التاريخى (HISTORICAL SIN) لايحل مشكلة الفقر .

ومن هنا يتجاهلون الجرائم التى ارتكبها الاستعمار الغربى ضد هذه الشعوب، واستلابه لثرواتها الطبيعية، وسحقها بالديون الربوية ، والحروب الأهلية، والعمل ليس على تحطيم اقتصادها فحسب، بل ـ بالدرجة الأولى ـ على تحطيم انسانية الانسان فيها، ولاسيّما الانسان المسلم، وذلک بالقضاء على كل خصائصه الانسانية الاسلامية، أى محو ثقافته ولغته، وهدم قيمه واخلاقه، وتنحية منهجه الربانى عن الحكم، وشريعته الاسلامية عن التطبيق، وأخيرا بمحاولة ردّه هو عن دينه، حتى يموت وهو كافر !

ومن الواضح أن الانسان الغربى يزعجه الحديث عن الآثام التاريخية أشد الأزعاج، لا لأنه يستحيى منها، فهو فى الواقع مازال حتى الآن يمارسها، ولكن لأنه يخشى عواقب هذا الحديث، من إثارة الشعوب عليه، وانتفاضتها للانتقام منه .

ونحن لاندعو الى اثارة أو انتقام ، وانما ندعو بدعوة الاسلام، وهى استخلاص الدروس من الماضى، واستخراج العبر من التاريخ، ومحاولة تشخيص التخلف، ومعرفة أسبابه الحقيقيّة، حتى نستطيع أن نتخذ ـ على بينة ـ الخطوات السليمة، والوسائل المجدية، لعلاجه .

موقف الاسلام من التبرير العنصرى :

انّ الاسلام يرفض هذا التبرير رفضا حاسما، وذلك لعدة أسباب منها:

أولا : أن هذا التبرير يقوم على أساس من نظرية دارون فى أصل الانسان، وانه متطور عن الحيوان، وأنه محكوم ـ كالحيوان والنبات ـ بمبدأ البقاء للأصلح .

والاسلام يرفض هذه النظرة الحيوانية للانسان .

فقد كرّم الله تعالى الانسان، وجعله متفرّدا بين الكائنات، فخلقه من طين، ثم نفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، واستخلفه فى الأرض، وزوّده بكل ما يعينه على مهمة الاستخلاف، فزوّده بالمقدرة على المعرفة، وبالارادة والاختيار، وعلّمه البيان، وأنزل له الهدى، **وسخرله ما فى السموات والأرض ورزقه من الطيبات .**

وقد أثبت العلم الحديث بطلان النظرية الداروينيّة (١٤) وأثبت العلماء حتىّ من غير المؤمنين ـ أن الانسان متفرد بخصائص تميزه عن الحيوان حتى من الناحية البيولوجية البحتة (فنشاطات الأكل والنوم والجنس عند الانسان أرقى منها عند الحيوان)، فضلا عن تميزه فى النواحى العقلية والسلوكية: كمقدرته على التفكير المجرّد، والتعبير الواضح (البيان)، ومقدرته على اقامة علاقة انسجام بين تفكيره وسلوكه، وعلى التحكم فى غرائزه، وسيطرته على الطبيعة والحيوان ، وصنع التاريخ الحضارى.

ثانيا : أن هذا التبرير يقوم على نظرية عنصرية تدّعى تفوّق الجنس الأبيض على الأجناس الأخرى من الناحية البيولوجية، وتحاول أن تبرّر الظلم الاجتماعى، وعدم المساواة بين البشر، واستعمار الغرب للعالم الثالث ـ تحاول أن تبرّر ذلک كله بزعم وجود صفات عرقية راقية فى جنس دون جنس.

والاتجاه العام فى العلم الحديث يرفض هذه النظرية كذلک، فعلماء الاجتماع يرفضون فكرة تحديد الجماعات الانسانية على أساس صفات عرقية وراثية، ويفضّلون تحديدها على أساس خصائص ثقافية واجتماعية: كالتحدث بلغة واحدة، والانتماء الى ثقافة مشتركة، والتشابه فى التقاليد والعادات (١٥) .

ومهما يكن موقف العلم الحديث من العنصرية فالعلم الحديث ليس حجة على الاسلام، بل الاسلام حجة على البشر وعلوم البشر جميعا. ومما لاشک فيه أنّ الاسلام يرفض العنصرية فى أى شكل من أشكالها، ويقرر أنّ الناس جميعا متساوون فى أصل الفطرة، وأنهم ينتمون الى أصل واحد، ونفس واحدة، وأنه لافضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى، فأكرم الناس عند الله أتقاهم، واصلحهم عملا، وليس أشدّهم بياضا ، ولا أكثرهم مالا .

والانسان ـ فى الاسلام ـ لايولد متخلفا بالوراثة ، ولا فقيرا بالفطرة، وانما يحدث له ذلک نتيجة لعوامل البيئة الفاسدة، والظلم الاجتماعى، والناس هم المسئولون عن الفساد والظلم معا، كما قال تعالى :

,,ظهر الفساد فى البرّ والبحر بما كسبت أيدى الناس،، (سورة الروم ٣٠:٤١)

,,واتّبع الّذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين،، (سورة هود ١١:١١٦)

والاسلام لايقرّ الفساد أو الظلم بأية صورة من الصور، ولا فى أى ظرف من الظروف، بل يحرّمهما ويوجب مقاومتهما بكل الوسائل ، حتى بالقتال كما قال تعالى :

,,أذن للّذين يقاتلون بأنّهم ظلموا وانّ الله على نصرهم لقدير الّذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الاّ ان يقولوا ربّنا الله ،، (سورة الحج ٢٢: ٣٩ـ٤٠)

ثالثا : أنّ هذا التبرير فى حقيقته انما هو انعكاس للفلسفة العلمانية التى تقوم عليها الحضارة الغربية، وهى الفلسفة التى تفصل السياسة والاقتصاد عن العقيدة والاخلاق ، وتتبنى المبدأ الميكياڤيلى الانتهازى الذى ينادى بأنّ الغاية تبرر الوسيلة . وفى سبيل تحقيق الغاية ـ وهى هنا الثروة ـ يجوز بل ويجب استخدام كل الوسائل الممكنة، مهما كانت لا أخلاقية . ومن ذلك استخدام القوة لقهر الضعفاء، وسلب ثرواتهم ، بل وانتهاك كل حقوقهم الانسانية .

ولاشك أن الاسلام يدعو الى القوة بكل معانيها، بما فى ذلك قوة المال .

ولكن القوة والثروة فى الاسلام ترتبطان بالعقيدة والأخلاق.

ويعتبر الاسلام كلا من القوة والثروة وسيلة لاغاية، أى وسيلة لتحقيق الحياة الطيبة التى تقوم على الايمان والعمل الصالح، كما قال تعالى :

,, من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة،، (سورة النحل ١٦:٩٧)

ومن هنا كان من أهم الفروق الجوهرية بين الحضارتين الغربية والاسلامية تميّز الحضارة الاسلامية بموقفها الانسانى من الضعفاء، وأنها تتخذ من القوة والثروة وسيلتين لحمايتهم واداء حقوقهم .

ومن أهم أسباب الضعف التى تعرض للانسان (١٦) :

الضعف من جهة المـال : كالفقراء والغارمين .

والضعف من جهة الحرية : كالـرقيق.

والضعف من جهة الوطن : كالغـربـاء.

والضعف من جهة السـنّ : كاليتامى والأطفال وكبار السن (وبخاصة الوالدين) (٧)

والضعف من جهة البنية : كالنساء

ومشقات الحمل والوضع :

وقد فرض الاسلام حقوقا انسانية واجتماعية ومـالية لكل هؤلاء الضعفاء ووضع كثيرا من التشريعات لحماية هذه الحقوق : كتشريعات الزكاة وانفاق العفو والصدقات والأوقاف، وتحريـر الرقيـق، ومعـاملة المعسرين ومساعدة الغارمين، وحقوق الوالدين والأولاد وذوى القربى، وحقوق اليتامى والنساء وأبناء السبيل .

بل لقد أكد الاسلام أن من بين أهداف تشريعاته فى القتال حماية المستضعفين، كما قال تعالى :

,,ومالكم لا تقاتلون في سبيـل الله والمستضعفيـن من الرجـال والنساء والو لدان الخ ،، (سورة النساء ٤:٧٥)

٣) محاولة تبرير الفقر بالنفعية والحتمية :

وتتمثـل هذه المحـاولة فى اتجـاه أصحـاب المذهـب النفعـى UTILITARIANISM من الفلاسفة الاجتماعيين وبخاصة بنتام وأتباعه .

وهذه الاتجاه يؤيد الاقتصاد الرأسمالى الحر، ويحدّد هدفه بأنه : تحقيق أكبر نفع لأكبر عدد من الناس، ومن ثم أطلق أصحاب هـذا الاتجاه الحرية للفرد لتحقيق مصالحه الفـردية المـادية، فى مجتمـع رأسمالى يترابط أفـراده أساسـا بهذه المصالـح. وقالـوا بأن الفقـر والتعاسة والحرمان والشقاء لابد أن يوجد فى المجتمع الرأسمالى (كما يوجد فى غيره)، لأنها ظواهر حتمية فى الحياة الانسانية (١٨) .

موقف الاسلام من هذا الاتجاه :

يتلخص موقف الاسلام من هذا الاتجاه فى ثلاث نقاط رئيسية :

أولا : مفهوم النفع والضرر فى الاسلام لاتحدّد بمصالح بعض الأفراد والجماعات فى بعض العصور والبيئات، ولا بالقوانين الوضعية التى تخدم هذه المصالح. وانما يتحدد بالمصالح الحقيقية للبشر جميعا فى كل زمان ومكان. ويمكن التعرّف على هذه المصالح من مصادر الاسلام، وبخاصة من القرآن والسنة والشريعة:

ا ـ ففى القرآن تتحدد هذه المصالح بمفاهيم وتعاليم قرآنية كثيرة متقابلة :

كالنفع والضرر ، والحلال والحرام ، والطيب والخبيث، والاصلاح والافساد، والعدل والظلم، والفلاح والخسران، والسعادة والشقاء.. وغيرهما . وكذلك بكل ماورد فى آيات الأحكام من تشريعات .

ب ـ والسنة النبوية هى المفسرة والمطبقة للقرآن، والمصدر الثانى للتشريع .

ج ـ وفى الشريعة بيان لكل تشريعات الاسلام الثابتة، وكذلك تشتمل على الاجتهاد لمواجهة الظروف المتغيرة، ومن أهم أهداف الشريعة الاسلامية المحافظة على الحياة الانسانية بكل جوانبها، وبخاصة المحافظة على النفس والمال والعقل والعرض والدين. وبالاجمال يشتمل الاسلام على كل ماينفع الناس فى الدنيا والآخرة .

أما النظام الرأسمالى فقد يكون ,,نافعا،، فى ظاهر الحياة الدنيا لبعض الناس (وهم الأغنياء)، ولكنه فى حقيقته ضارّ بكل البشر فى جميع الأحوال، وضارّ بالأغنياء أنفسهم فى الدنيا والأخرة :ويكفى أنه يثير عليهم الحقد الطبقىّ وما يترتب عليه من آثار اجتماعية خطيرة، تعصف باستقرار المجتمع، وقد تدمّر كيانه كله. ويكفى كذلك أنه يقوم

على الربا والاحتكار والظلم الاجتماعى، ومن ثمّ يؤدى الى كوراث إجتماعية وانسانية متكـــــررة : كالبطالة والتضخم، وانتشار الفقر والفواحش، وتشجيع العنصرية والاستعمار، وإثارة الفتن والحروب المحليّة والعالميّة .

ثانيا : حرية التملك فى الاسلام ليست حرية مطلقة، وانما هى مقيّدة بقيود كثيرة، تجعل من الملكية الفردية وظيفة اجتماعية لخير الفرد والمجتمع (١٩) .

واهم هذه القيود ـ بايجاز ـ مايلى :

١) أنّ الانسان مستخلف فى المال وليس مالكه الحقيقى: ويترتب على هذا الاستخلاف أن فى مال الأغنياء حقوقا مفروضة للقيام بمصالح المسلمين . والزكاة هى الحدّ الأدنى من صور الانفاق المفروضة للقيام بهذه المصالح . وتنفق الزكاة على مستحقيها كما حددهم القرآن الكريم (سورة التوبة ٩:٦٠) وهم : الفقراء، والمساكين، والعاملون عليها، والمؤلفة قلوبهم، والغارمون (أى المدينون المستغرقة أموالهم بالديون)، وفى الرقاب (أى الأرقاء)، وابناء السبيل، وفى سبيل الله (وهو مصرف عام تحدده حاجات المسلمين و أولويات هذه الحاجات تبعا للظروف : كالتعليم والعلاج والجهاد وغيرها) .

فاذا لم تف الزكاة بحاجات المسلمين فعلى الحكومة الاسلامية أن تأخذ من ثروات الأغنياء مايسد هذه الحاجات جميعا . ولهذا ذكرت الزكاة وذكر معها الانفاق فى آية البر (سورة البقرة ٢:١٧٧)، وقال صلى الله عليه وسلم : ,, انّ فى المال لحقّا سوى الزكاة،، وتلا آية البر (رواه الترمذى) . وقال صلى الله عليه وسلم :,, انّ الله فرض على اغنياء المسلمين فى أموالهم بالقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء اذا جاعوا أو عروا الا بما يصنع أغنياؤهم (رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير) .

٢) **أن يكون اكتساب المال من حلال، أى بالوسائل المشروعة فى الاسلام وهى :**

أ ـ العمل : أى الجهد الشخصى المشروع بكل أنواعه البدنية والعقلية والنفسية .

ب ـ حكم الشرع : كالمال المستحق بالانفاق على الاسرة والقرابة والميراث .

ج ـ تبادل الملكيات : عن طريق العقود والمعاملات .

٣) **ألا يكون اكتساب المال بوسائل محرّمة فى الاسلام وهى :**

أ ـ أخذ المال بغير حق : كالغصب والسرقة والغلول والتطفيف والرشوة .

ب ـ العقود المحرّمة : وبخاصة الربا بكل أنواعه .

ج ـ الأعمال المحرّمة : كالاحتكار والاتجار بالمحرّمات والميسر .

٤) **تحريم اكتناز المال** : ووجوب تداوله وتوظيفه فى أعمال نافعة للمجتمع لقوله تعالى :

,,والّذين يكنزون الّذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم . (سورة التوبة ٩ : ٣٤

٥) **تحريم كون المال فى أيدى القلة من الأغنياء** :لقوله تعالى:

,, كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم ،،(سورة الحشر ٥٩:٧)

٦) **تحريم انفاق المال فى المعاصى والخبائث وكل ما حرّم الله .**

٧) **وجوب الاعتدال فى الانفاق الشخصى** : أى تحريم الاسراف والتقتير .

٨) **تطبيق القاعدة الشرعية : لاضرر ولا ضرار .**

ثالثا : ليس الفقر فى الاسلام ظاهرة حتمية، ولا مجهولة الأسباب :

وانّما هى ظاهرة لها أسباب محددة، أو يمكن تحديدها بدقة، وكذلك تحديد المسئولية الانسانية عنها، كما يمكن علاجها وتحرير البشرية منها .

فليس من أسبابها زيادة السكان، أو قلة الرزق ، أو ندرة الطعام، أو وجود صفات عرقية متدنّية فى شعوب العالم الثالث، وراقية فى شعوب الغرب . فكل ذلك ـ كما سبق بيانه ـ لايفسّر الفقر ولا يبرّره، وانما هى مزاعم باطلة، تهدف الى أن تجعل الفقر قدرا محتوما على شعوب العالم الثالث وحدها، أى على الشعوب الاسلامية، كما تهدف الى أن تجعل الغنى من الغرب وحده .

ان أهمّ العوامل فى انتشار الفقر فى العالم هو عدم تطبيق منهج الاسلام فى الحياة الانسانية، وهيمنة المناهج الوضعية العلمانية، وبخاصة هيمنة الاقتصاد الربوى الغربى، وفرضه على الشعوب الاسلامية . ومن أوضح آثاره : انتشار الظلم الاجتماعى، وانتشار الفقر والجوع، وصيرورة المال دولة بين الأغنياء، وتزايد اتساع الهوّة بين الأغنياء والفقراء على المستويين المحلى والعالمى .

وعلاج الفقر يكون بتطبيق منهج الاسلام **بكل جوانبه** ومنها الاقتصاد.

وأهم خصائص هذا المنهج بايجاز أنه :

★ منهج يدعو الى القوة بكل معانيها المادية والمعنوية، وهذا يشمل قوة الايمان والاخلاق، وقوة العلم والمال، وقوة التنظيم والعمران، وقوة الاعداد للقتال، ويضع ذلك كله فى إطار متكامل يجمع بين العقيدة والسلوك، والتربية والتشريع، ويربط بين النشاط الانسانى فى مرحلتى ما قبل الموت وما بعده .

★ منهج يكرم الانسان بعمله لابنسبه ولا بجنسه أو لونه : فيجعل العمل وبذل الجهد البشرى مقياس المسئولية، وأساس الاستخلاف فى الأرض، وينهى عن الرهبانية، ويجعل كل النشاطات

الانسانية البنّاءة، أى الاعمال الصالحة، نوعا من العبادة، ولهذا يأمر بالعمل والسعى لكسب الرزق ، والضرب فى الأرض ابتغاء فضل الله، والهجرة من الضيق والاستضعاف الى السّعة والمنعة. وكذلك يأمر بتعمير الأرض ، والعناية بالحرث والنسل، كما يأمر بالانفاق، ويفرض فى اموال الأغنياء حقوقا للفقراء، ويجعل اليد العليا خيرا من اليد السفلى، ويستعيذ رسوله صلى الله عليه وسلم من الفقر والكفر، ومن غلبة الدَّين وقهر الرجال . ومع ذلك لايجعل الدنيا أكبر همّه، ولا المال غايته، بل يتخذ من الدنيا مزرعة للآخرة، ومن المال وسيلة لرضوان الله، فيكتفى من الرزق بالكفاف، ومن المال بالقليل ، وينفق فى سبيل الله، ويقول :

,,تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم،، (رواه البخارى).

★ منهج يقيم المجتمع الانسانى على العدل والاحسان معا، وعلى التكافل لاعلى التنافس بين الأفراد، أو الصّراع بين الطبقات. يقيم المجتمع الذى تحلّ فيه الطيبات وتحرّم الخبائث، ويعطى فيه كل ذى حق حقه، ولاسيّما الضعفاء والفقراء، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

,,لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقّه غير متعتع،، (رواه ابن ماجه) .

★ فاذا عمل كل قادر على العمل، وأنفق كل قادر على الانفاق، وأدّى الأغنياء حقوق المال وهى كفاية ذوى الحاجات جميعا حتى بما هو أكثر من الزكاة (لأنّ فى المال حقا سوى الزكاة كما سبق بيانه)، و اذا سخّرت الثروات الطبيعية الهائلة فى بلاد المسلمين للانفاق لتحريرهم من الفقر والجوع والجهل والمرض وكل أشكال التخلف المادى والروحى -

فهل يبقى بعد ذلك بين المسلمين فقير أو محتاج ؟ !.

٤) محاولة تبرير الفقر بمتطلبات السوق وندرة الطعام :

وهذه المحاولة تتبنّاها الشركات الكبرى والاحتكارات العالمية (بالتواطؤ مع الحكومات الغربية) .

فتزعم هذه الشركات والاحتكارات أنه ليس لها يد فى تحديد أسعار السّلع (وبخاصة السلع الغذائية)، فالأسعار تتحدد (ترتفع دائما!) تبعا لمتطلبات السوق، أو ما يسمونه :

,, اليد الخفية للسوق،،(٢٠) THE INVISIBLE HAND OF A MARKET

ولذلك تتنصل هذه الشركات والاحتكارات من كل مسئولية عن ارتفاع الأسعار (وبخاصة أسعار الطعام)، وتدّعى أن المسئول عن ذلك يد خفية لايراها أحد، وهى متطلبات السوق!.

تقول باحثة عالمية متخصصة فى مشاكل الفقر والجوع فى العالم (٢١) : ,,الواقع أن الطعام حاجة أساسية من حاجات الانسان، ولكن هذا لا يعنى أنه يعتبر (فى التفكير العالمى) حقا أساسيا من حقوق الانسان . فهناك عدة هيئات ذات نفوذ (كالاحتكارات العالمية) لاتعتبر الطعام الا مجرد سلسلة من السلع التى يمكن أن تحقق الربح الوفير للمتاجرين فيها، تماما كالمطاط أو الذهب ،، .

,,فالتجار الأقوياء (أصحاب الشركات الكبرى) الذين يتاجرون فى مواد غذائية كاللبن والسكر والقمح يقومون فى نفس الوقت بعمليات تصنيعها وتسويقها، ولهم صلات رسمية وغير رسمية بالحكومات . ويتواطأ الجميع (تجارا وحكومات) على نشر أسطورة من أكبر الأساطير فى العصر الحديث، وهى أسطورة السوق .

,,(وطبقا لهذه الأسطورة) يفترض فى السوق أن تقوم بعملية تحديد الأسعار بواسطة قوى العرض والطلب. وتعبيرات اللغة نفسها تساعد على نشر هذه الأسطورة، اذ يقال : ,, ارتفعت الأسعار،، كأن الأسعار هى الفاعل الحقيقى للفعل : ,, ارتفعت،، وكأنه ليس هناك

فاعل بشرى حقيقى لهذا الارتفاع (وهم التجار أصحاب الشركات). فهؤلاء ـ عن طريق التحكم فى العرض والطلب ـ يحدّدون أسعار المواد الغذائية بأعلى مستوى ممكن، ولأطول وقت ممكن ». .

والواقع ـ كما تبين الباحثة ـ أن الأغلبية الساحقة من المنتجين والمستهلكين لارأى لهم على الاطلاق فى الكيفية التى يعمل بها سوق الغذاء فى العالم ، وأنّ الذى يسيطر على هذا السوق وعلى تحديد أسعارها هو تلك الشركات الكبرى ، والحكومات الغربية التى تساندها.

وتتصل بأسطورة السوق اتصالا وثيقا أسطورة أخرى وهى أسطورة الندرة : ندرة الطعام .

وتتكلم الباحثة عن هذه الندرة فتقول (٢٢):

,,وعندما نتحدث اليوم عن الندرة ـ والطعام لابد أن يكون ,,نادرا،، والا فلماذا يجوع مئات الملايين من الناس ؟ ـ فيجب أن نضعها فى السياق السياسى لتلك الشعوب التى تتحكم ـ الى درجة كبيرة ـ فى امداد العالم حاليا بالطعام، ولتلك الشركات الاحتكارية التى تسيطر على تجارة الطعام (فى العالم)..،، وطبقا لأبسط القواعد فى الاقتصاد الحرفانّ أى سلعة حيوية يقلّ عرضها لابدّ أن يرتفع ثمنها، (ويترتب على ذلك أن) من لديه تلك السلعة للبيع (أى التاجر الّذى يحتكرها لابد أن يربح . وهذه القاعدة الأساسية تطبق (اليوم) على نطاق عالمى، وتحقق نجاحا هائلا (للاحتكارات العالمية) .

وتذكر الباحثة أمثلة كثيرة على هذه الندرة ,,المخطّطة،، التى تحقق ,, نجاحا هائلا ،، للاحتكارات العالمية ، نكتفى منها (اضافة الى ما سبق ذكره) بالمثالين التاليين عن القمح والأرز :

أما القمح : ففى الفترة بين ١٩٦٩ ـ ١٩٧٢م اتفقت حكومات أمريكا وكندا وأستراليا والأرجنتين (وهى من أكبر الدول المنتجة للقمح)

على تخفيض المساحات المخصصة لزراعته فى أراضيها، للمحافظة على ارتفاع أسعاره . ويقدّر الخبراء أنه لو لم تتخذ هذه الحكومات هذا القرار لزاد انتاج القمح فى العالم فى تلك الفترة بمقدار ٩٠ مليون طن.

وقد سبقت الاشارة الى أنه فى سنة ١٩٧٢م دفعت الحكومة الأمريكية أموالا للمزارعين ليمتنعوا عن زراعة ٦٠ مليون فدان بالقمح، مما أدىّ الى ارتفاع أسعاره .

وأما الأرز ـ وهذا غذاء أساسى تعتمد عليه كثير من شعوب العالم الثالث ـ فقد ادّى التخفيض المخطط للمساحات المخصصة لزراعته الى ارتفاع أسعاره على النحو التالى :

فى يناير ١٩٧١م كان سعر الطن ١٢٩ دولارا .

فى يناير ١٩٧٤م أصبح سعر الطن ٥٣٨ دولارا .

وفى ابريل ١٩٧٤م ارتفع سعر الطن الى ٦٣٠ دولارا .

وطبعا حققت الشركات الاحتكارية ,, نجاحا هائلا،، بهذا الارتفاع، ولكن على حساب الملايين من الفقراء الجياع .

موقف الاسلام :

وقد تكون ندرة الطعام فى بعض الأحوال ندرة غير مخططة تخطيطا بشريا (على النحو الذى رأيناه) . وفى هذه الحالة تعد فى الاسلام :

أ ـ ابتلاءً من الله لعباده

ب ـ أو عقابا لهم .

أ ـ **أما حالة الابتلاء :** فان الله تعالى يبتلى عباده بالسّراء والضراء، وبالخير والشر، كما قال تعالى :

,,ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة والينا ترجعون،،

(سورة الأنبياء ٢١: ٣٥)

ومن هنا يبتلى الله عباده بسعة الزرق كما يبتليهم بضيقه :

,,يبسط الرّزق لمن يشاء ويقدر،،

(سورة الشورى ٤٢: ١٢)

وقد صرّح القرآن بابتلاء المؤمنين بأنواع من الشدائد منها الخوف والجوع وضيق الرزق :

,,ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين الّذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انّا لله وانّا اليه راجعون أولئک عليهم صلوات من ربهم ورحمة و أولئک هم المهتدون،، (سورة البقرة ٢: ١٥٥ ـ ١٥٧)

ومن أخلاق المؤمنين فى التعامل مع الشدائد (من أى نوع) أنهم يواجهونها بالصبر والصلاة، ويستعينون عليها بالتعاون والايثار حتى يجعل الله لهم منها فرجا ومخرجا . وهذا مافعله المسلمون عام المجاعة مثلا، فقد حرّم حاكم المسلمين آنذاک (وهو عمر بن الخطاب رضى الله عنه) على نفسه وأهله أنواعا ضرورية من الطعام حتى تغيّر لونه. والمبدأ الاسلامى فى التكافل هو أنه **اذا جاع المسلمون فلا مال لأحد** .(٢٣) .

ب ـ **وأما حالة العقاب** : فان الله تعالى يعاقب الكافرين بنعمته بالخوف والجوع معا، كما قال تعالى :

,,وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كلّ مكان فكفرت بأنعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ،، (سورة النحل ١٦:١١٢)

وقد اتضح لنا مما سبق أن ذكرناه عن تخزين ,,جبال،، الزيد واللحم والحبوب ، وعن اتلاف كميات كبيرة من المحاصيل الزراعية والمواد الغذائية، وعن تخفيض المساحات المخصصة لزراعة الحبوب أن ندوة الطعام التى يعاينها فى عصرنا الحاضر كثير من الناس وكثير من المسلمين، انما هى ندرة مخططة ، وأن الشركات والحكومات

الغربية تتواطأ على هذا التخطيط، لتحقيق الكسب الحرام عن طريق استغلال حاجة انسانية اساسية، بل انتهاك حق أساسى من حقوق الانسان .

ومن الواضح أنّ معظم المسلمين فى عصرنا الحاضر يعانون الخوف والجوع، وأنّ النظام الاقتصادى الغربى المعمول به فى كثير من بلاد المسلمين مسئول ـ الى حد كبير ـ عما هم فيه من خوف وجوع .

ولكن : هل هذا يعفى المسلمين من المسئولية ؟

لنتجنّب التعميم نقول : انّ الذى يتحمل المسئولية الكاملة عن أحوال المسلمين اليوم هم المقصرون من حكامهم وأغنيائهم ، ,,والصفوة،، المثقفة ـ بالثقافة العلمانية، والتى تنادى بتطبيق العلمانية فى كل جوانب الحياة الاسلامية.: ولا سيما فى السياسة والاقتصاد، والتربية والتشريع، وعلماء المسلمين الذين سكتوا عن الأمر بالمعروف حتى صار منكرا، وسكتوا عن النهى عن المنكر حتى صار معروفا (٢٤)

أولئک يتحملون المسئولية فيما بينهم عن أحوال المسلمين اليوم .

ولن يزيل هيمنة النظام الاقتصادى الغربى على المسلمين الاّ هيمنة الاسلام وحده، وبكل جوانبه المتكاملة، على حياتهم.

وبذلک يتحررون من الاستغلال والاستضعاف، ومن الظلم والبغى، ومن الخوف والجوع .

,,الّذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتُوا الزّكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور ،،
(سورة الحج ٢٢: ٤١)

الهـــوامـــش

١) راجـع : THE PENGUIN DICTIONARY OF ECONOMICS (THIRD ED., LONDON 1985) P.445.

٢) راجـع : PAUL HARRISON: THE THIRD WORLD TOMORROW (2ND. ED., PENGUIN BOOKS, LONDON 1983) PP. 342 ff

٣) راجـع : PAUL HARRISON: ibid., PP. 23 ff

٤) راجـع : WALT ROSTOW: THE STAGES OF ECONOMIC GROWTH (VARIOUS EDITIONS).

وأيضاً : THE PENGUIN DICTIONARY OF ECONOMICS pp. 138-139.

٥) للمزيد راجع : PAUL HARRISON: INSIDE THE THIRD WORLD (2ND. ED., PENGUIN BOOKS, LONDON 1986) pp. 354 PP. 405 ff

٦) راجـع : DAVID RICARDO: PRINCIPLES OF POLITICAL ECONOMY AND TAZATION (LONGMAN, LONDON 1926) P. 225.

وأيضاً : JOHN GALBRAITH: THE ANATOMY OF POWER. (PENGUIN BOOKS, LONDON 1986) pp. 209 - 210.

٧) راجـع : SUSAN GEORGE:
HOW THE OTHER HALF DIES: THE REAL REASONS FOR WORLD HUNGER. (PENGUIN BOOKS, LONDON 1986) pp. 209 - 210.

٨) راجـع : SUSAN GEORGE: ibid., p. 210.

٩) - راجع أحمد عبد الحميد غراب : مفهوم الأرض فى القرآن الكريم ، منبر الاسلام (القاهرة) رمضان ١٤٠٤هـ ، ص ٨٧ـ٩٤

١٠) راجع SUSAN GEORGE: ibid. Ch.2. PP. 53 ff
(الفصل الثانى بعنوان : THE POPULATION MYTH
,,أسطورة السكان،، .

١١) راجـع ibid., P. 142.

١٢) من الغريب أنه فى الوقت الذى ينادى فيه بعض ,,الزعماء،، و ,,المفكرين ،، المسلمين بتحديد النسل يذاع اليوم (١٩٨٦/١٠/٨م) فى الاذاعات العالمية أن رئيس الوزراء الاسرائيلى القى

خطابا فى قطاع غزة، دعا فيه الاسرائيليين الى المزيد من انجاب الأطفال ، وأكد أن قوة اسرائيل تكمن فى زيادة نسل اليهود. هذا فى الوقت الذى تعانى فيه اسرائيل ارتفاعا هائلا فى نسبة التضخم !.

وراجع أبو الأعلى المودودى : حركة تحديد النسل (عدة طبعات) .

١٣) راجع بالتفصيل JOHN GALBRAITH: THE ANATOMY OF POWER. PP. 117 ff.

١٤) راجع موريس بوكاى : ما أصل الانسان .

الترجمة العربية مراجعة الأستاذ كمال الهلباوى مع المؤلف - مكتب التربية العربي لدول الخليج - الرياض ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

وراجع أيضاً جوليان هكسلى : الانسان فى العالم الحديث فصل ..اتفرّد الانسان - الترجمة العربية لحسن خطاب - ص ١ ومابعدها .

١٥) راجع مادة: ETHNIC GROUP فى: THE PENGUIN DICTIONARY OF SOCIOLOGY (London 1986) P. 83

١٦) للمزيد راجع أبو الحسن العامرى : كتاب الاعلام بمناقب الاسلام :تحقيق أحمد عبدالحميد غراب . سلسلة تراثنا-وزارة الثقافة القاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

١٧) للوالدين حقوق أخرى باعتبارهما والدين ومربيين ، وقد أكد القرآن الكريم حقوقهما و أوجب برهما بكل الاعتبارات وفى جميع الحالات اللهم الا اذا أمرا بكفر (أو معصية). وحتى فى هذه الحالة نهى عن طاعتهما ولكن أمر بحسن معاملتهما : ,, وان جاهداك على أن تشرك بى مالیس لک به علم فلا تطعهما و صاحبهما فى الدنيا معروفا،، . (سورة لقمان ١٥:٣١) .

وراجع أحمد عبدالحميد غراب : الشخصية الانسانية فى ضوء القرآن الكريم (الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٥م) ، ص ٨ ١٦٢ .

١٨) راجع : JOHN GALBRAITH: THE ANATOMY OF POWER PP. 116 - 117

١٩) راجع : الدكتور أحمد الحسان، الدكتور، فتى عبدالكريم : النظام الاقتصادى فى الاسلام مكتبة رهية - القاهرة ط . الثالثة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

الاستاذ : محمد المبارک : نظام الاسلام الاقتصادى .

٢٠) راجع : JOHN GALBRAITH: ibid.

وتعبير ,, اليد الخفية ،، يرجع أصلا الى آدم سميث، الذى استعمله فى كتابه ثروة الأمم THE WEALTH OF NATIONS ويعنى به أن الأفراد بنشاطهم الحر لتحقيق مصالحهم الفردية يسهمون فى رضاء المجتمع الرأسمالى ، حتى ولو لم يقصدوا ذلک .

٢١) راجع : SUSAN GEORGE: HOW THE OTHER HALF DIES P. 139 (سوزان جورج : كيف يموت النصف الآخر ص ١٣٩).

وقد عملت المؤلفة - لفترة طويلة - مستشارة لعدة منظمات تابعة لهيئة الأمم المتحدة، ومنها : جامعة الأمم المتحدة، ومنظمة اليونسكو، وغيرها من المنظمات الثقافية والاقتصادية .

٢٢) راجع : SUSAN GEORGE: ibid. P. 140

وتجل قراءة الفصل السادس كله بعنوان :..ندرة مخططة ،، ص١٣٩- ١٥٧ .

Ch. 6: "PLANNED SCARCITY", PP. 139 - 157

٢٣) يقوم هذا المبدأ على أحاديث كثيرة منها :

١) ,,أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله ،، (رواه الحاكم)

٢) ,,من كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له، ومن كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ،، الى ان عدد من أصناف المال ما عدد حتى رأينا (والمتكلم هو أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه) انه لا حق لاحدمنا فى فضل، (رواه مسلم) .

٣) ان الاشعريين (قبيلة من اليمن) كانوا اذا أجدبوا أو أرملوا (أى افتقروا وأصابهم القحط) جمعوا ما عندهم من زاد فاقتسموه بينهم بالسوية فهم منى و أنا منهم ،،

٤) ومن هنا ينشر الفساد ويعم العقاب المجتمع كله كما قال صلى الله عليه وسلم :، اذا رأى الناس الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك الله ان يعمهم بعقاب ،، .